التصوير الفني

في القرآن الكريم

بقلم
سيد قطب

في المقال الأول تحدثنا عن نوعين من أنواع التصوير الفني في القرآن الكريم : « صور فنية » وقصص فني . وفي هذا المقال نتحدث عن النوعين الأخيرين

٣ — حوار فني

في القرآن كثير جداً من الحوار ، وهو سلب كل قصصه تقريباً ، وكل مناقشاته لمخالفيه في العقيدة . ولكن الحوار الفني الذي سأضرب له الامثال هنا ، هو ما يشتمل على عنصر الخيال ، ويجتاز بهذا الخيال ، إلى دائرة الفنون الحرة ، وميدان الآداب الطليق (١)

١ — « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم ، وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وفي هذا الحوار البارع ، يبدو لك المنظر مؤلفاً من ثلاث فرق :

أولاً : الضعفاء الذين كانوا تبعاً للاقوياء . وهم ما يزالون في ضعفهم ، وقصر عقولهم وإحساسهم ، يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، أو يعتون عليهم إغواءهم متشبثين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة

ثانياً : الذين استكبروا ، وقد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا عاقبتهم وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصاً أو يذكرونهم بجريمتهم معهم حيث لا تنفع الذكرى ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لو هدانا الله لهديناكم »

ثالثاً : الشيطان . بكل ما في طباعه من مراوغة ومغالطة واستهتار وتجبح و(شيطنة) يعترف لأتباعه

---

(١) يصلح هذا الموضوع لبحث مستقل ، يتناول الحوار في القرآن وصلاته بالمقالة الدينية العامة ، ورسائلها في البرهنة

— الآن فقط — أن الله وعدهم وعد الحق ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم ثم يمضهم ويؤنبهم وهو ينفض يديه من تبعاتهم : « وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » لا بل يزيد في تبجحه فيقول « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » الله . الله . يا لها الشيطان !

في الحق إن هذا إبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتفكر فيه الشيوع لتابع ، ويتخلى الولي عن الاولياء ، حيث لا يجدي أحداً منهم أن يتخلى أو يتمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق تسيره دون تفكير . وفي الحق إن الشيطان هنا منطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي يرسمها القرآن له ، وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والانكار . والموقف بما فيه من هذا الحوار التصويري ، موقف فريد من الوجهة الفنية البحتة ، وله أثره العميق في النفوس ، ولولا أن هذا البحث خالص ، لتوسعت في بيان قيمته من وجهة الدعاية الدينية ، ولكن حسبنا الاشارة

٢ — « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً ، فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : انا كل فيها . ان الله قد حكم بين العباد » . وفي هذه الصورة ملامح من تلك : وهي تكرار لبعضها ، مع تغيير طفيف حين تبدو الملالة في قول المستكبرين : « انا كل فيها » فهي قولة الضجر وحرج الصدور ، الذي لا يطيق كلاماً ولا جواباً

٣ — ومن هذا النحو : « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ! »

وفيها ما يشير الى الشيظ وحب الانتقام يجيش في صدور الضعفاء ، فيتمنون لو يجازون اولياءهم صاعاً بصاع . ولكن هيهات !

٤ وفي موقف نوح من ابنه عند الطوفان : « وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

في اللحظة الرهيبة تثب عاطفة الأبوة ، ومع اعتقاد نوح كنبي أن ابنه مغرق لأنه لم يؤمن فقد ضغت عليه عاطفة الأبوة ، وراح في لهفة وضراعة يدعو ابنه . ولكن النبوة العاتية ، لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة القوية ، لا ترى الخلاص الا في عملها وفتوتها : « سآوي الى جبل »

وفي لحظة اخرى تتغير صفحة الموقف ، في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية ، تبتلع كل شيء في لحظة « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

وللحوار بقية بين الله ونوح ، ولكن الجزء الذي أثبتناه ، لم يدع مجالاً للنظر فيما وراءه بما تركه في النفس من روعة خاطفة وقيمة ساهمة

٥ — ومن الحوار المتع المصور للحالة النفسية ، ما يدور بين اهل الجنة واهل النار: « ونادى اصحابُ الجنة اصحابَ النار : ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا . فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . واذّن مؤذّن بينهم ان لعنة الله على الظالمين »

« ونادى اصحابُ النار أصحابَ الجنة : ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا : انّ الله حرّمهما على الكافرين »

فهذا الحوار المختصر في ذينك الشأنين بديع في اختصاره ، مصور لحالتي الفريقين اتم تصوير وفي مبدئه تهكم خفيٌّ من المؤمنين ، بأولئك الذين كانوا يكذبون بما وعدهم الله ، حتى اذا تم « اذّن مؤذّن بينهم » . وبين الداعين تصوير للأعراف ، وما يقع عندها من احداث يضم الى القسم الأول من اقسام التصوير الفنيّ ، ويصلح مادة للاحم خصبة[1] ، ومناظر سينمائية

٤ — تعبيرات فنية

في القرآن غير الأنواع الثلاثة التي مرّ ذكرها ، تعبيرات فنية مختصرة ، ترتفع الى الذروة في دقة التعبير وجماله ، وانصاحه عما يتصدى له من مناظر طبيعية ، او خطرات نفسية ، او طبائع خلقية . وفيما يلي نماذج منها

١ — « والصبح اذا تنفس »... فمن ذا الذي يقرأ هذا التعبير ، ثم لا تنبعث في نفسه خيالات شتى ، تصور له كل حي في هذه الدنيا ، ينفض عن نفسه رداء النوم ، عند انبلاج الصباح ، وتدب فيه الحياة والحركة ، وتشيع فيه النشوة واليقظة ؟

وهي بعد جملة واحدة ، بل لفظة واحدة ، تخلق هذا المثال الثائر من الاشعاع ، وتمد الخيال بذخيرة ، تنشط لها النفس الحية ، وتستشعر التفتح والاستزواح

٢ — « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »... تقرؤها فتتصور التهالك على الحياة في احط صورها ، وأقل مراتبها ، بلا شرط ، ولا تمييز بين حياة وحياة . فوراء هذا التنكير والتجهيل ماوراءه من تحقير وتصغير ، يربط بالحياة التي يحرص عليها هؤلاء الناس المقصودون ، الى مرتبة حياة الديدان والحشرات والهوام ، دون أن يساق لهذا المعنى لفظ ناب ، ولا تعبير مستكره !

٣ — « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرَقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات او مُدّخلا لولوا اليه وهم يجمحون » . فأي تعبير عن الحين ، وتأصل الخوف ، وسقوط الهمة ، واعتياد التخلف ، أبين من هذا التعبير المختصر المصور ، الذي لا يواجهك بالوصف ، بل يترك لك استنباطه ، بعد متعة للخيال في التصور اللطيف ؟

---

(١) كتب الشاعر المبدع المرحوم الاستاذ محمد عبد المعطي الهمشري ملحمة بعنوان « شاطىء الاعراف »

٤ — «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض : هل يراكم من احد ؟ ثم انصرفوا» !

يا لسخرية من قوم لا يحتملون تبعة رأيهم ، ولا يحبون أن يقوم الدليل عليهم ، فيهربون من مواجهته ، وهم يتخافتون بينهم ، ليتأكدوا أن أحداً لم يرهم وهم يهربون

ويا للخيال المتع يصور بهم ، وهم يتسللون ، بعد أن نظر بعضهم الى بعض . وقد أمنوا الرقيب

٥ — « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سُكّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . وهذه صورة للمكابرين الصغار ، الذين لا تنبع مكابرتهم من اعتداد بالنفس والرأي ، بل تنبع من الجهل والاستغلاق والعناد المطموس فلا يبالون وضوح الدليل ، ولا بضاعة الحجة ، ولا يخافون سقوطهم بسبب هذا العناد المفضوح

٦ — « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ . ضعف الطالب والمطلوب » . أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يفضي الى السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ؟

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه اخرى ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ » وهذه انكى وأشد ، وليس وراء ذلك من ضعف حقير

ولكن : هذه مبالغة ؟ أو هل البلاغة فيها هي الغو ، كما يفهم الكثيرون ان ذلك مدار الاستحسان في يقرءون !

كلاّ ، فهذه حقيقة واقعة بسيطة ، فهؤلاء الآلهة الذين عبدوا من دون الله — وأرقام ما كان أنساناً — « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الاعجاز في خلقه هو الاعجاز في خلق « الحياة » وهي أكبر شيء وأعظم شيء في الوجود . وما تزال الحياة في أول صورها مستهوّلة مستعظمة ، بجانب الموت الجامد ، والفناء المتراخي

ولكن البراعة هنا في عرض هذه الحقيقة ، بصورة تكشف العجز عن بلوغ مسألة هينة صغيرة في ظاهرها

ولعل في هذا ابداء سريعاً لرأي في المبالغة وعلاقتها بالبلاغة وان كان الموضوع يتسع لبحث كبير

٧ — «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلاّ يعلمها ، ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ الاّ في كتاب مبين »

في هذه الكلمات القليلة تصير قوي رهيب عن شمول علم الاله ، مختار له افضل الألفاظ المعبرة ، فضلاً على التركيب كلهُ ، فليس عبثاً أن يقال : « وما تسقطُ من ورقةٍ الاّ يعلمها » وليس لغواً ان يقال : « ولا حبّة في ظلمات الارض » وان الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ومجاهلها ، ليتبع هذه الاوراق الساقطة ، وتلك الحبات المجهولة المشمولة في مخابئها بعلم الاله

٨ — « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح » . شريط سريع العرض جداً للحياة ، يبين الغرض المقصود من عجيم قصرها وسرعتها . وهو غرض ديني ليس من شأننا ان نبحثه هنا ، ولكننا نبحث الصورة وحدها في جمل ثلاث قصيرة ، تتضمن ثلاث حالات سريعة متداخلة ، ينتهي عرض « شريط » الحياة!

ماء نازل من السماء ، اختلاط هذا الماء بالنبات ، النبات هشيم تذروه الرياح!

وبين هذه المراحل الثلاث الخاطفة ، مراحل أخرى طويلة ، ولكنها في الواقع ثانوية في الصورة وفي حياة النبات ، ولهذا يعتبر ذلك التصوير صادقاً مع اغفاله المراحل الطويلة الثانوية التي لا حاجة اليها في الغرض الحاضر ، وإثباته المراحل القصيرة الاساسية

وتلك هي المهارة في التعبير ، مع الصدق في المحو والاثبات

كلمة تحليلية

لم يكن قصدي مما قدمت الا ضرب الأمثلة ، ولفت النظر ، فلم أكن أنوي الاستقصاء ، وما يزال وراء ما ذكرت كثير مما لم أذكر ، والموضوع خصب وصالح للدراسات المستفيضة ، والمتهيئون في دراسة الآداب ، بالجامعة والازهر ودار العلوم (بعد اصلاحها) يستطيعون ان يضطلعوا هذا البحث ، رسالة قيمة للتفاق والدراسة

ولكن من الحق ان اقرر ان ما لم اذكره صورة مما ذكرته ، وكلاهما يلتقي عند لون واحد من ألوان الأدب الفني . وهذه الانواع الاربعة التي مثلت لها ، تلتقي كذلك عند هذا الاصل ولهذا لا بد من الابتدار والتعجل ، الكلام على التصوير الفني في القرآن ، هنا من وجهة النقد الادبي ، يميل الادب العربي كله الى « الكلاسيك » حيثما يميل الى الصور الذهنية ، والتقاليد التعبيرية ذات القوالب المضبوطة المحدودة ، التي تستعار من حالة ، الى كل حالة تشابهها ، ولذلك مال النقاد والعرب ، الى تحديد صور العواطف والانفعالات ، وتحديد صور التعبير عنها كذلك

ولذلك غلا بعض ادبائهم ، فانكر نفسهُ وزمانه في سبيل الجري وراء الصور الذهنية والصور التعبيريّة ، في مخلفات الاجيال السابقة واعتبروها نوعاً من الطقوس لا ينزع عنها !

ولكن الأدب العربي لم يعدم التنويع في اساليبه واتجاهه الى حدٍّ ما

فقد دخلت فيه « الرمزية » عن طريق « الصوفية » التي ترمز بالظاهر للباطن ، وترى خلف كل محسوس ظاهر ، معنويًّا مخبأً وراء الحجب ، تتملاه البصائر « بالاشراق » وتقصر دونه الابصار . وهذا اساس لا بأس به للرمزية في الأدب

ولكن حدث أن « الصوفية » ظلت طريقة دينية اكثر منها طريقة أدبية . وظلت بمعزل عن الادب العام ، فلم تؤثر رمزيتها فيه الا بمقدار ، ولم تستطع تحويلهُ عن مجراه الاصلي ، وعن

وجهته الكلاسيكية . ويعتبر ابن الفارض أبرز مثل لرمزية الأدب العربي ، وهي كما يراها الباحث رمزية خفيفة ، مناسبة للوسط العربي

وقد دخلت « الرومانتيكية » كذلك دخولاً خفيفاً جداً في الأدب العربي في العهد العباسي وفي الاندلس ، وازدادت الى حدٍّ ما في أيامنا هذه وإن كانت آخذة في الانحسار ، تبعاً لانتشار المذهب « الواقعي »

دخلت الصور الموشاة المظللة في الشعر ، ورسمت صور الأبطال والمواقف والمناظر ، ذلك الرسم الهين تحت اشعّة ساحية ، وأحاطت الهالات المرسومة عن قصد بالعواطف والمرائي ، وتبع ذلك ظهور التعارض والاصطناع وهما من عيوب الرومانتيكية ، حين تغلو في طريقتها

أما « الواقعية » فقد استعاض عنها الادب العربي قديماً ببساطته وجيشه ، ولو انحرف قليلاً فصار اليها ، وإن الباحث في بعض الانتاج الادبي في الجاهلية ، وفي الشعر الماجن ايام العهد العباسي ، ليجد في كليهما ملامح من « الريالزم » الحديث

الى اي هذه الألوان الاربعة يخضع التصوير الفنّي في القرآن ؟ يجد الباحث مشابه كثيرة فيه من « الرومانتيكية » وان كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في اوربا وفي الشرق ضمناً ولكنها «الرومانتيكية» الخفيفة ، البعيدة عن التكلف والاصطناع

فتلك الصور الفنية التي يرسمها ليست « كلاسيكية » ذات قوالب وحدود . وليست « رمزية » ولا تميل الى الرمزية ، فليس وراءها ما ترمز اليه ، وإنما هي مقصودة لذاتها . وليست « واقعية » مجردة من الخيال والتوشية والظلال . ولكنها أشبه ما تكون بالرومانتيكية

وليس في ذلك كله من عجيب . فالقرآن يمثل العقلية العربية والاتجاه العربي في التعبير ، إذ كان خطاباً للعرب أولاً ، وسجلاً لارقى طبقة معجزة من بلاغتهم

والعقلية العربية لا تميل الى الرمز ، ولا تجد حاجة اليه وهي تكره التوشية والظلال والاغراق في البعد عن المحسوس الملموس ، والرومانتيكية لا يهمها المحسوس بمقدار ما يهمها الصورة الخيالية

فلا غرابة أن تأتي العربية عن الرومانتيكية الموغلة ، ويكتفي القرآن بالصور الأولى منها في تصويره الفنّي

اما لماذا لا تميل العقلية العربية الى الرموز والخيالات فهي طبيعة بلادها تأويل ذلك . فليس في هذه البلاد محجوب ، ولا مسؤول مجهول ، فلا داعي اذن لاغراق الخيال ، ولا ضرورة حينئذٍ للرمز ، وكل شيء مكشوف معروف . ثم إن الصراحة التي جبل عليها العربي نتيجة عدم خضوعه لنظم سياسيّة او اجتماعية او اقتصادية قاهرة تميل به عن الرمز الى التصريح

تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصب ، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير ان شاء الله